١٩٨٤/٧/٢٣
1984٠723-٠٠٠2-٢

متى نخرج من عصر الاسترقاق والخطف؟

من ظواهر الحرب الاهلية ، وما اكثر ظواهرها ، خطف الانسان وسجنه وتسخيره وتصفيته والتمثيل بجثته . واذا كان المخطوف قد يصفى كبشر له عقل وقلب ولسان ، فإنه لا يصفى ولا ينتهي عند امه واخته وزوجته وابيه ، وهنا قمة القهر والعذاب . فموت انسان « قدر ، او حال الدنيا ، او حكمة الاله ، او الدنيا واحد بيوصل واحد » . لكن غياب مخطوف لا يقع تحت اي من هذه « الحكم » ، فهو امل موجود ، وله شبه ، وكل يوم يطرق الاذان خبر ، او اشاعة ، او لمحة ، او سمسار ، يحيي ذلك الامل الذي لم ينطفيء ، بأن يأتي يوم يطرق فيه الباب فيحتضن بحرارة . وما اكثر ما تسمع ، وما اكثر الحكايات والعذابات التي لا تطال ، مخطوفا فقط ، بل وشهيدا جاء اهله في نعش بعد طول وفاة ، وقناعة ان هذا القبر والاسبوع والاربعين ، ليسوا الا لمجهول ، فإبننا جرح في المعركة وانسحب ، وهو هنا وهناك ، لمحة فلان ، وحادثة علان ، وإنتظار مميت ، وقهر اعظم .

في صراعات القبائل البدائية في عيش القلة والجوع ، كان الخطف والاسترقاق ، خطف اثناء القتال ، او خطف صبية او شاب يولد قتالا . وفي الحضارات القديمة كان العبيد يخطفون في القتال والطرق والمزارع ، او يعاقبون لمعارضة او تهمة ، ويرحلون الى الحواضر ، رقيقا يباعون لهذا او ذاك ، يمتعون الاسياد نساء ، ويخصون رجالا ، يقدمون ليصارعوا الاسود في الحلبات ، فيتمتع الاسياد بقدرة الاسد على الافتراس ، او بقدرة مصارعي اليونان والرومان على التمثيل بجثة عبد ضعيف ، اكلت رطوبة الاقفاص من عينيه وسواعده كل قدرة ، او يقدمون لبناء المعابد والقلاع والاهرامات ، او في مؤخرة العساكر يحملون كل متاع ، او يجدفون في قاع سفينة ، لكنهم كانوا يثورون ، وقد ثاروا كثيرا ، حتى بات « سبارتاكوس » اشهر من الامبراطور « كركلا » وكل اباطرة روما .

وفي تاريخنا العربي ، لا تنفصل قبائل الجزيرة في الاسترقاق وتجارة العبيد ، عن محيطها الساساني الروماني . فالملكية كانت المدخل لاستعباد المرأة حتى صرخ « عمر بن الخطاب » بصوت عال « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا » .

لكن القوانين والنصوص ، تطوع لصالح السادة ، فيكثر الرقيق في سواد العراق ويثورون زنجا ، وتكثر الاماء في بيوت حضارات مدينية معقدة الا عن انتاج فائض تجاري وجباية متعسفة ، فيحول العبد الى مولى حينا ، ويمتد الاسترقاق مع القمع الى الدولة التركية ، التي كانت تخطف اطفال مسيحيي البلقان وتربيهم ابناء للدولة والسلطان ، وكذلك المماليك المقطوعي الجذور ، وحتى الامس القريب والحاضر ، وفي مواسم دينية يختفي عدة مئات من البشر ، ربحوا حجة واضاعوا ورقة اثبات فيغيبون في رمال الصحراء والقصور .

وبالامس القريب كانت الحضارة الرأسمالية ، تدفع انتاج تجارة العبيد بكثافة نقلت عشرات الملايين من افريقيا الى الاميركيتين ، حيث كان البحارة والنخاسون والصيادون يفخخون ويخطفون البشرة السوداء ، التي حكت بعض مآسيها قصة « الجذور » التي شاهدها كثيرون على الشاشة الصغيرة ، فيما اساطيل بريطانيا كانت تمون المزارع والمناجم برقيق سعره اليومي بضع حريرات غذائية عاظمت التراكم في المراكز العالمية الرأسمالية ، حتى شعر كبار المسيطرين والبرجوازيين ، بضرورة تكديح هذه السواعد وتحريرها لشراء تعبها واستنزافه في الصناعات ، فرسمت قوانين تحرير العبيد ومنعت تجارة الرقيق ، ليتخلص سود الولايات المتحدة من النير الأول .

واليوم تعيد الفاشية والغرائز المذهبية ، انتاج الاسترقاق في ذيل حضارة رأسمالية ، تمثل بالمخطوف وتحوله الى رقم او حقل تجارب ، وقد غابت حلبات الصراع ، وان كان السحل وتفجير الديناميت حول الرأس ، واستئصال الاعضاء التناسلية ، مزايدة على البدائيين حضارة .

وكما كان لكل رقيق ومخطوف ام وأب وزوجة واولاد كذلك لمخطوفي الحرب الاهلية اللبنانية ، الذين يجدفون عطاشا وجياعا في قاع سفن لهم امهات وآباء وزوجات وأولاد ينتظرون عودتهم ونهاية عصر الاسترقاق والعبودية .

فاء . دال